الفصل الاول

البداية الاولى للفكر الاجتماعي

يقوم المجتمع الانساني على وجوه الانسان الذي يرتكز على تفكيره المتفاعل مع بيئته الاجتماعية ومناخ منطقته الجغرافية مكوناً نظماً اجتماعية عاكسة هذا التفاعل . لذا سوف نرى أن نظم مجتمع بلاد الرافدين تختلف في بعض الوجوه عن نظم المجتمع المصري . مثال ذلك كان ملك المجتمع الاول عبارة عن وسيط بين الارض والسماء أي بين المجتمع والاله ، بينما كان ملك المجتمع الثاني الاله نفسه دون واسطة وهذه الظاهرة أثرت كثيراً على طبيعة حكم المجتمع ونظمه الاجتماعية والدينية فأضحى المجتمع الاول متصفاً بالصفة الجمعية في مقرراته وقيمه الاجتماعية بينما اصبح الثاني متصفاً بالصفة الفردية في قراراته وقيمه .

١ ـ المجتمعات القديمة

المجتمع المصري

لمحة تاريخية :

إن بداية المجتمع المصري القديم كانت مع الاسرة الاولى ، حوالي عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد وامتدت حتى نهايته مقترنة ببداية فتح الاسكندر الاكبر لمصر وفقدانها استقلالها عام ٣٣٢ قبل الميلاد ، فهي حقبة من الزمن امتدت على حياة مصر حوالي ثلاثين قرناً[١] .

وقد اختلف المؤرخون حول تحديد تاريخ مصر قبل عهد الاسرات فالعالم البلجيكي (جاك بيرين) يقول بأن الجماعات المصرية القديمة كانت عبر العصر

الحجري القديم عبارة عن جماعات رحّل ، وإنها كانت تعيشُ من الناحية الجنسية في حالة اباحية ، ثم جاء العصر الحجري الحديث لتستقر هذه القافلة الحائرة وتتخذ الجماعة طريقها صوب نظام الاسرة وكانت السيادة للاسرة الابوية . ويأتي رأي ثان ينكر هذه المرحلة من مراحل الشيوعية الجنسية وينادي مع التطور بسيادة نظام الاسرة الاموية ويأتي رأي ثالث هنا ليقر بوجود النظامين معاً . ويأتي العالم الاثري (موريه) والعالم الاجتماعي (دافي) ليقرر بأن تلك الجماعات كانت عبارة عن عشائر توتمية « معقدة » بأنها تولدت من توتم تعده بمثابة الجد الاعلى لها ، والتوتم عبارة عن حيوان تعبده الجماعة وتتخذ منه رمزاً لها لما يرجيء منه الخير ويخشى منه الشر(٢) .

تكوين المجتمع المصري القديم :-

كان أساس تكوين المجتمع المصري مهنة الفرد حيث كون هذا الاساس تدرجاً اجتماعياً يضع الافراد عليه مثل الفلاحين والعمال ورجال الكهنوت والكتاب . اضافة الى ذلك لم يعرف المجتمع المصري القديم في عهوده الاولى نظام الرق ، أي وجود أشخاص لا يتمتعون بالشخصية القانونية يتبعون غيرهم وتذوب شخصيتهم تماماً في شخصية السيد للاسباب التالية : -

أ - الاغراق في النزعة الفردية المطلقة حيث لم يوجد نظام الرق من المرحلة الاولى في المجتمع المصري حتى العصر الذي ظهر الاقطاع فيه وخلال هذه المرحلة كانت العلاقة التي تربط الاشراف بنماذج المجتمع الاخرى من عمال وفلاحين علاقة تعاضدية وليست علاقة سيد بمسوده .

ب - اكتفاء العامل اقتصادياً وعدم معاملته معاملة استغلالية استعلائية .

جـ - العلاقة بين الفلاح والمالك كانت عقدية مع ذلك فهناك رقيق يمثلون الانواع التالية عبيد الدولة (الفرعون) الرقيق العام وعبيد الجيش ، وعبيد الكهنة وعبيد الاثرياء .

وعلى الرغم من مكانته الاجتماعية الواطئة على السلم الاجتماعي ، الا أنه يتمتع بحياة شبه استقلالية ، فله أسرة خاصة داخل المجتمع وله الحق بأن يتزوج بحرة وتترتب عليه كافة الآثار من ثبوت نسب أو أرث الى خلافة ، ويمكن للعبد أن يكون شاهد في الدعوى وله الحق بأن يوقع الدعوى بأسمه ويكون أيضاً طرفاً في الدعوة المرفوعة عليه . فهو أذن يتمتع بالحقوق القانونية والمدنية والاختلاف في المهنة وموقعه داخل المجتمع .

يأتي بعد هذا الموقع الاجتماعي ، موقعاً آخر أرفع منه نسبياً وهو الفلاح الذي كان عبداً لهذه الارض التي يعيش عليها وليس للانسان ولهذا كان يرتبط (الفلاح) على الدوام بأرض الفرعون أو بالاراضي الملحقة بالمعابد وكانت تبعيته تبقى للارض حتى الممات فاذا ما وهبت الارض لاحد أو بيعت سرى ذلك على الفلاح وأولاده فهي ليست عبودية لاحد ولكن تبعية للارض التي عاش عليها وعمل فيها ولم تكن الارض قيمة حقيقية الا بناء على أذرع الفلاح الفنية[٣] . وكانت الدولة تحصل على النصيب الاكبر من محصول الفلاح أما عن طريق مقاسمته هذا المحصول أو عن طريق جباية الضرائب . وكان بؤس الفلاح وشقائه مبعثه أرهاقه بالضرائب والالتزامات الاخرى تحت ستار الواجب الديني تجاه فرعون المنقذ والمخلص في العالم الآخر .

الموقع الثالث هو العامل الذي يقع في أسفل السلم الاجتماعي أيضاً ويمارس مهنته في الاسواق أو الميادين العامة ويقوم بالتعامل المباشر مع عامة الناس وكانت حالته في منتهى السوء ، وقليل الدخل . وهناك عمال القصور الملكية وكانت حياتهم أفضل من الفئة الاولى (عمال الاسواق) وكانوا يتقاضون اجورهم عيناً على شكل مواد غذائية أو ثياب أو غير ذلك ما كان يوجد عادة في المخازن المملوءة بالخير والملحقة بالمعابد أو القصور الملكية[٤] . وهناك العمال المهرة الذين كانوا ينتجون لاعمال الفنية العظيمة التي خلدتها الآثار المصرية وتبوأ نفر منهم مكاناً اجتماعياً مرموقاً وعاشوا في ثراء ورفاهية الا أن هذا لا يشمل الجميع بل كانوا في أسفل السلم الاجتماعي .

بعدها يأتي موقع المحاربين (الجنود والضباط) ، حيث كان القتال والانتصار يمثل المصعد السريع على السلم الاجتماعي . فالجندي أو المحارب القوي يستطيع التسلق بسرعة على سلم المجتمع المصري ، بيد أن القواد وعظام الضباط يختارون من بين أبناء الاسرة الملكية أو من الاسر الارستقراطية الذين كانوا يربون تربية خاصة ويمارسون تدريبات خاصة تؤهلهم لتولي مناصب القيادة في الجيش . أما الجنود فكانوا من أبناء عامة الشعب وارتقائهم الى مراتب القيادة كان أمراً نادراً تحكمه تارة ظروف الصدفة البحتة وتارة أخرى يخضع رهن أعمال عظيمة يقوم بها هؤلاء الجنود[٥] .

ثم يأتي موقع رجال الكهنوت الذين نالوا حظاً موفوراً من الثقافة ويكونوا مكونين تكويناً علمياً خاصاً ، وكانت دراستهم تبدأ منذ نعومة أضفارهم حيث يدرسون العمل الكهنوتي والعمل الاداري ، وكانت سلطة رجال الدين تقوم على

فكرة الوهية الملك وكان الفرعون يهبهم الاقطاعات التي كانت معفاة من كافة أنواع الضرائب .

أخيراً يأتي موقع الكاتب وهو أهم المواقع الاجتماعية لأنه أقربهم الى فرعون ويأكل من خيرات القصر الملكي ويحصل على شرف لم ينله الا أقرب المقربين الى الملك ومرتبته الاجتماعية تكون مرهونة بذكائه وعلمه وتربيته وخدمة اسرار الكتابة وفن الحساب وشؤون الادارة ، وكانت السلطة له وليست عليه . وزبدة القول كان الانتقال على السلم الاجتماعي المصري (القديم) أفقياً وليس عمودياً ، فالفرد المصري كان مرتبطاً أبدياً بموقعه الاجتماعي لا يستطيع التحرر منه أبداً ، وتكون حريته محدودة بالسلطة الدينية التي يتمتع بها الملك أو الفرعون الحي .

نظام الحكم :

بدأ تاريخ مصر الحقيقي أو الرسمي مع تأسيس الاسرة المصرية الاولى على يد الملك مينا (نارمر) وذلك عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد ومعه تمت وحدة البلاد سياسياً وتشريعياً ودينياً[٦] .

وهناك عدة نظريات ظهرت لتحديد اصل الدولة المصرية وهي مايلي :

١ ـ نظرية القوة : التي ترى بأن الحاكم كان يتخذ من الدين سندا يبرر به تصرفاته ومناهج حكمه متخذاً منه في نفس الوقت وقاء له يعتمد عليه في تكييف سلطته . اذن عمل الدين جنباً الى جنب مع منطق القوة في تقديم رئيس الجماعة الذي يتبوأ مكان الرئاسة . وترى هذه النظرية أيضاً أن الملك (مينا) اقام وحدته على اساس من القوة .

٢ ـ نظرية تطور الاسرة : التي تؤكد على رب الاسرة التي ادت الى اتحاد مصر العليا بالسفلى في دولة واحدة تحت سلطة الملك (مينا) فالسلطة المعطاة لرب الاسرة استقرت في مرحلتها التطورية عند سلطة الملك .

٣ ـ نظرية العشيرة الطوطمية التي تعني جماعة من الافراد يعتقدون أن هناك رابطة قرابة تربط بينهم جميعاً ولكن رابطة هذه القرابة لا تقوم على اساس صلاة الدم وإنما على اساس انتسابهم جميعاً الى طوطم الذي هو عبارة عن حيوان أو نبات تعتقد العشيرة أنها تولدت منه . أي أنه بمثابة الجد الاعلى فملوك الفراعنة اتخذوا لانفسهم اسم حوريس (الصقر) وإن اقليم هيراكوينولس (بمحافظة قنا) انتشرت فيه فكرة تقديس الصقر واعتباره حامياً لمصر وإنه الكفيل الدائم لنصرها على الاعداء[٧] .